المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي | الإصدار الثالث عشر | تاريخ الإصدار: ٥-٥-٢٠٢٠م
ISSN: 2706-6495

التثاقف في التراث الشعبي بين المغرب وبلدان إفريقيا الغربية في العصر الإسلامي دراسة أنثروبولوجية

Acculturation in folklore between Morocco and the countries of West Africa in the Islamic era (Anthropological study)

اعداد الباحث: عبدان عبدالفتاح

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ابن طفيل – المغرب

Email : abdansafi2012@gmail.com

ملخص الدراسة:

لقد بات من المسلم به أن العلاقات بين المغرب الأقصى وإفريقيا الغربية ضاربة في جذور التاريخ الإنساني، وهي علاقات حكمتها التحولات الطبيعية للقارة من جهة، وسجية الإنسان القديم المفطور على الرحلة والترحال في بساط الأرض بحثا عن موارد العيش من جهة ثانية، كما كان للتبادل التجاري بين ضفتي الصحراء دور كبير في تذويب الهوة الثقافية والاقتصادية بين الجانبين، زد على ذلك أن المنقطة عرفت توطينا عامرا بالسكان منذ آلاف السنين حسب ما أثبتت دراسات الآثار الحديثة.

فعلى مر التاريخ لم تنقطع وشائج التواصل بين المغرب وسكان إفريقيا السوداء، إن على المستوى التجاري أو السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي أو التراثي، وإن كانت تلوح في الأفق بين الفينة والأخرى غيوم عابرة من التوتر، فإنها ما تلبث أن تنقشع بعجالة أمام الحاجة الماسة للطرف الآخر من أجل التكامل التجاري، لتفسح بذلك المجال للتواصل الحضاري الشعبي المتعدد الأوجه والمختلف الأشكال من حقبة إلى أخرى؛ تواصل تبادل فيه الطرفان الخبرات والمعارف الشعبية، كما تبادلا فيه المعتقدات والسلوكات الدينية،

ISSN: 2706-6495

بل وصل الأمر إلى الاندماج الاجتماعي التام الناتج عن استقرار الكثير من المغاربة بالسودان الغربي وتزاوجهم مع الزنجيات منذ عهد قديم، أضف إلى ذلك الزاد الثقافي الذي جلبه التجار أو العبيد السودانيون الذين عاشوا وتعايشوا مع المغاربة في مختلف الحقب الزمنية، فتغيرت عاداتهم ومعتقداتهم الوثنية واستأنسوا بثقافة الشمال التي انصهروا فيها عبر مراحل متعاقبة من التاريخ، كما لا ننسى أن انضواء السودان الغربي في العهد المرابطي والموحدي والسعدي تحت الراية المغربية، كانت له آثار في التحول الاجتماعي والديني في عقلية الزنوج، فبدأت منذ ذلك الإبان تصطبغ المنطقة بالهوية والثقافة المغربية في مختلف جوانب الحياة اليومية من مأكل وملبس وعمران، وكذا في العقيدة والسلوك.

لقد جثم الاستعمار بنفوذه على الغرب الإفريقي، وتنافست القوى الغازية في استغلال خيرات المنطقة المتنوعة وفرض ثقافتها الغربية ونظمها السياسية ولغاتها الأوروبية، مما جعل المنطقة تنفصل جذريا عن تاريخها العربي/ الإسلامي لتعانق نمط الحياة الأوربية تدريجيا خلال القرنين الأخيرين.

الكلمات المفاتيح: التلاقح الثقافي- التراث الشعبي- المغرب- بلدان إفريقيا الغربية- دراسة أنثروبولوجية- العصر الإسلامي

Acculturation in folklore between Morocco and the countries of West Africa in the Islamic era (Anthropological study)

Abstract:

It has become recognized that the relations between the Far Maghreb and West Africa are rooted in human history, and these relations are governed by the natural transformations of the continent on the one hand, and the foolishness of the old man who is broken on the journey and traveling in the midst of the earth in search of living resources on the other hand, as was the trade exchange between The banks of the desert have a major role in bridging the cultural and economic divide between the two sides. Moreover, the region has known a population that has been inhabited for thousands of years, according to recent archeology studies. Throughout history, the bonds of communication between Morocco and the inhabitants of black Africa have not been interrupted, whether on the commercial, political, cultural, social or heritage levels, and if looming on the horizon from time to time, passing clouds of tension, they soon to clog quickly to the urgent need of the other party For the sake of commercial integration, in order to give way to the civilizational, popular, multi-faceted and various forms of communication from one era to the next.

ISSN: 2706-6495

They also exchanged religious beliefs and behaviors. Rather, the matter reached the full social integration resulting from the stability of many Moroccans in Western Sudan and their intermarriage with Negroes since an ancient era. Add to that the cultural increase brought by Sudanese merchants or slaves who lived and coexisted with Moroccans in different periods of time, Their pagan customs and beliefs changed and they became familiar with the culture of the North in which they melted through successive stages of history. Also, we should not forget that the western Sudan's lights during the Almoravid, Almohad, and Saadi era under the Moroccan flag had implications for social and religious transformation in my mind. The Negroes, and since that time, the region has become pigmented with Moroccan identity and culture in various aspects of daily life, including food, clothing and urbanism, as well as in belief and behavior.

Colonialism swayed its influence on the West African, and invading powers competed in exploiting the region's diverse goods and imposing its western culture, political systems and European languages, which made the region radically separate from its Arab / Islamic history to gradually embrace the European lifestyle during the past two centuries.

Keywords: Cultural cross-fertilization - folklore - Morocco - West African countries - anthropological study - the Islamic era

المقدمة:

لقد ظل الصراع الأزلي بين الأنا والآخر يشكل العجلات المحركة لتاريخ البشرية جمعاء، لما يضمنه من فرص اللقاء والتجدد بشتى الوسائل، مؤديا إلى امتزاج الثقافات وانصهار الحضارات واندماج الأعراق، بالرغم من محاولات الشعوب، جريا ضد التيار، الحفاظ على نقاء العرق وصفاء الثقافة وحماية الخصوصية الهُوّياتية، إلا أن حتمية التغيير الناجمة عن معرفة الآخر والاحتكاك به والتثاقف معه، ظلت تزعزع جيولوجيا المجتمعات، وتبدل مصائرها وتزخرف وجوهها بمساحيق مستعارة، وأحيانا تلغي وجودها الثقافي وتفنيه إذا ما وصل التغيير إلى جوهرها الداخلي، لذا اهتمت الكثير من الدراسات بهذه الظاهرة التي لا تقل أهمية عن حوادث الكون الكبرى لدراسة أحوال الامتزاج بين الشعوب، وما يطرحه من تفاعل ثقافي واجتماعي عرف حديثا باسم المثاقفة أو التثاقف أو حوار الثقافات.

وفي سياق هذا الحوار ظلت علاقة المغرب بإفريقيا جنوب الصحراء، كعلاقة الجسد بأعضائه، فهي السماد الذي غذى جذور هذه الثقافة التي نجني ثمارها اليوم ونتمتع بمظاهرها الجذابة وتحكم سلوكاتنا ومعتقداتنا دون أن ننتبه لتلك الجذور الممتدة في الثقافة الإفريقية العريقة، التي ظلت الينبوع الذي يسقينا حينما تذبل حقولنا الحضارية ونرويه بالمياه الثقافية حينما تمسك سماء الصحراء الإفريقية عن الإمطار الثقافي والحضاري.

ISSN: 2706-6495

فعن طريق هذه العلاقة وأيضا تلك العلاقات الأخرى التي شهدتها الحضارة المغربية مع حضارات البحر الأبيض المتوسط الشمالي قديما وحديثا، انبثقت الهوية المغربية بأشكالها الثقافية المختلفة وبغناها التراثي وبممارساتها الشعبية المتعددة وبفرادتها الإسلامية العجيبة.

وإن المتأمل في الدستور المغربي ليَفجَؤُه ذلك التنوع في المرجعيات الثقافية والإثنية للهوية المغربية، فقد جاء في ديباجة الدستور المغربي الجديد، وحتى في الدساتير التي سبقته:«المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة وتلاحم مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية – الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية»(دستور المغرب،٢٠١١). لكن العودة لتاريخ الشمال الإفريقي القديم عامة، وتاريخ المغرب الأقصى خاصة، كفيلة بأن تقدم لنا الإجابات الشافية عن روافد ومبررات هذا التعدد الهوياتي بالمغرب، الذي يعدّ الوجه الإفريقي الزنجي أحد مكوناته الرئيسة، بالنظر إلى متانة العلاقات الاجتماعية وانصهار المغاربة في فترات كثيرة من التاريخ مع أهل السودان، وهذا ما تؤكده رسالة الملك الحسن الثاني إلى رؤساء منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا سنة ١٩٨٥ من أن المغرب بلد أفريقي، وإنه سيبقى بلدا إفريقيا في كل الأحوال والظروف(العروي، عبدالله، ١٩٩٧، ص٣). ويحق لنا اليوم أن نتساءل عن الأثر الذي تركه هؤلاء الأفارقة في المغرب، وعن الدور الذي لعبوه في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والفنية. خاصة وأن عين الملاحظ الأجنبي لا تماري في الإقرار بأن المغرب ليس بلدا ذا لون أوحد، بل إن شفرته الوراثية« تتشكل من مكونات عربية وإفريقية وإسلامية وأمازيغية ويهودية وأندلسية» (مارثيا كوبارّوبياس، ٢٠٠٣، ص١٥). وهي حقيقة بادية للعيان في مختلف المناحي التراثية المغربية من آداب وعادات ومأكل ومشرب وموسيقى وعمارة، لتصبح هذه الميزة من القرائن الدالة على أن المغرب، بموقعه الجغرافي، وثقله التاريخي، شكل عبر العصور ملتقى للحضارات وأرضا للتسامح الديني والتعايش العرقي.

وإذا كان الاهتمام بمظاهر التواصل الثقافي الشعبي بين المغرب وجيرانه الشماليين (الرومان والأندلس)، وأيضا بينه وبين المشارقة الوافدين عليه (الفنيقيين والعرب)، قد أخذ جانبا مهما من الدراسة والتحليل، وعلى مستويات متعددة، فإن الرافد الإفريقي لم ينل ما يستحقه من الاهتمام، خاصة من الناحية التراثية والثقافة الشعبية. وهو جانب نعتقد أنه لا يقل أهمية عن غيره من المستويات الثقافية، لما له من وثيق الصلة بالاحتكاك الحضاري المباشر بين الشعوب والأفراد عبر مختلف العلاقات الاجتماعية والتجارية التي جمعتهم.

فعلى مر التاريخ لم تنقطع وشائج التواصل بين المغرب وسكان إفريقيا السوداء، إن على المستوى التجاري أو السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي أو التراثي، وإن كانت تلوح في الأفق بين الفينة والأخرى غيوم عابرة من التوتر، فإنها ما تلبث أن تنقشع بعجالة أمام الحاجة الماسة للطرف الآخر من أجل التكامل التجاري، لتفسح بذلك المجال للتواصل الحضاري الشعبي المتعدد الأوجه والمختلف الأشكال من حقبة إلى أخرى؛ تواصل تبادل فيه الطرفان الخبرات والمعارف الشعبية، كما تبادلا فيه المعتقدات والسلوكات الدينية، بل وصل الأمر إلى الاندماج الاجتماعي التام الناتج عن استقرار الكثير من المغاربة بالسودان الغربي وتزاوجهم مع الزنجيات منذ عهد قديم، أضف إلى ذلك الزاد الثقافي الذي جلبه التجار أو العبيد السودانيون الذين عاشوا وتعايشوا مع المغاربة في مختلف الحقب الزمنية،

ISSN: 2706-6495

فتغيرت عاداتهم ومعتقداتهم الوثنية واستأنسوا بثقافة الشمال التي انصهروا فيها عبر مراحل متعاقبة من التاريخ، كما لا ننسى أن انضواء السودان الغربي في العهد المرابطي والموحدي والسعدي تحت الراية المغربية، كانت له آثار في التحول الاجتماعي والديني في عقلية الزنوج، فبدأت منذ ذلك الإبان تصطبغ المنطقة بالهوية والثقافة المغربية في مختلف جوانب الحياة اليومية من مأكل وملبس وعمران، وكذا في العقيدة والسلوك.

ومن هنا فلن يكون من الغريب في شيء أن نجد التفسير الصحيح والتأويل الحق لبعض من مظاهر حياتنا وسلوكنا وتقاليدنا ومعتقداتنا وملابسنا وأعرافنا في البلاد الإفريقية، كما لن يكون من الغريب أيضا أن تكون لبعض ممارساتنا الموسيقية في مظهرها النغمي والإيقاعي والآلاتي أصول إفريقية زنجية بحتة، وبالمقابل لن نتفاجأ إن كشفنا عن مدى التأثير الحضاري المغربي في الثقافة الشعبية والدينية لهؤلاء الأفارقة سواء من حيث اللغة أو العقيدة أو العمارة أو الموسيقى أو الفن أو اللباس.

دوافع الدراسة

وقد تبلورت لدينا فكرة الاشتغال على هذا الموضوع انطلاقا من دوافع عدة أولها ذلك الحضور الجلي للثقافة الزنجية-الإفريقية في التراث الشعبي المغربي بمختلف مظاهره وفنونه، وثانيها فراغ المكتبة المغربية من بحوث ناضجة ترفع اللثام عن التثاقف بين المغرب وجيرانه الأفارقة في التراث الشعبي، وثالثها ذلك الاهتمام المتزايد الذي باتت تحظى به العلاقات المغربية- الإفريقية في سياسة واقتصاد المغرب الحديث، والذي بدأ يلتفت لعمقه الإفريقي بعد أن كان أدار له الظهر متطلعا للرقي الغربي دون جدوى؛ وبرزت من نتائج هذا الاهتمام استضافة بلدان الغرب الإفريقي كضيف شرف في المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء لسنة ٢٠١٤ والزيارة الملكية الثانية في أقل من عام للعديد من بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، والتي تكشف عن عمق الترابط الثقافي والتاريخ المشترك بين المغرب وهذه البلدان الإفريقية الجارة.

مشكلة الدراسة

ولا شك أن الإشكالية الأساسية التي يتمحور حولها هذا البحث هي جزء من الأهداف العامة التي قام من أجلها، فإذا كانت الإشكالية - حسب ما هو متعارف عليه- عبارة عن جملة سؤالية تستفسر عن العلاقة القائمة بين متغيرين أو أكثر، فإن إشكالية هذا البحث يمكن تركيزها في الطرح التالي:

إلى أي حد استطاع المغاربة، في العصر الإسلامي، تأطير وتغيير الحياة الاجتماعية والثقافية للشعوب الإفريقية، وإلى أي حد استطاعت هذه الشعوب، بالمقابل، نقل ثقافاتها وممارساتها ومعتقداتها إلى التراث الشعبي المغربي؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة الفرعية التالية:

- ✓ ما المقصود بالتراث الشعبي؟ وما هي مكوناته وخصائصه؟
- ✓ ما طبيعة العلاقات التي جمعت بين المغرب والبلدان الإفريقية؟ وما هي عواملها؟ وما أشكالها؟
- ✓ ماهي أدوات التمرير الثقافي الشعبي بين الجانبين ؟
- ✓ وماهي أهم الرواسب التراثية التي غرسها المغاربة في تلك البلدان الإفريقية؟

ISSN: 2706-6495

- ✓ وما هي، بالمقابل، أبرز المظاهر التراثية التي جلبها الأفارقة العبيد أو التي انتقلت إلينا عبر الاحتكاك الثقافي بين الجانبين؟
- ✓ ثم كيف انصهرت تلك الرواسب الإفريقية في سلوكات وطقوس المغاربة وتراثهم الثقافي والعمراني؟

هذه إذن مجمل التساؤلات التي تؤطر البحث وتلملم مادته وتوجه منهجه للإجابة عنها.

فرضيات الدراسة

لقد ارتبط المغرب بدول الغرب الإفريقي ارتباطا وثيقا على مر التاريخ، وكان العمق الافريقي خاصة بلاد السودان الغربي محورا تجاريا رئيسيا للقوافل العابرة للصحراء الكبرى الشيء الذي يجعلنا نعزز افتراضنا بحصول تلاقح ثقافي وتقارب اجتماعي عميقا جدا بين القطبين، خاصة وأن المنطقة دانت بالإسلام تدريجيا في العصر الوسيط وبشكل سلمي، فإلى أي حد أسهمت التجارة في ترسيخ القيم الدينية والعادات الثقافية للشمال الافريقي في الجنوب، وما إسهامات الزوايا الدينية في هذه العملية، وما مدى تعلق الأفارقة بالزاوية التجانية بفاس، ولما يحجون إليها قبل التوجه لمكة المكرمة؛ وإذا علمنا أن التجار المغاربة كان من بين أهم وارداتهم العبيد والجواري الذين تشربوا الثقافة الافريقية بطقوسها ووثنيتها البدائية، فلربما نثروا هذه الثقافة في المجتمع المغرب وما أبرز تجلياتها إن وجدت في التراث المغربي الغني بالرواسب الافريقية.

أهداف الدراسة

ونروم من خلال هذا البحث الكشف عن ذلك الانصهار الحضاري والاجتماعي بين سكان إفريقيا الشمالية خلال العصر الإسلامي، الذي طُوِيت فيه الصحراء بدخول الجمل وتضاعف تنقل القوافل والقبائل في هذه المنطقة الشاسعة مما ترتب عنه احتكاك وتبادل ثقافي كبيران، كما يرنو بحثنا إلى الوقوف على التأثيرات الاجتماعية والشعبية التي تركها المغاربة في البلدان الإفريقية في العصرين الوسيط والحديث، و يتغيى بالمقابل إبراز الدور الطلائعي الذي أدّاه العبيد الزنوج في تطوير التراث الشعبي بالمغرب قديما وحديثا، وتتبع رواسب إسهاماتهم الثقافية وأدوارهم الاجتماعية وتعابيرهم التراثية عبر التاريخ إلى أن فرضوا وجودهم واندمجوا في الحياة المغربية.

كما نصبو من خلال هذا البحث إلى إلقاء الضوء على امتداد التدين الشعبي بين المغرب وجيرانه مركزين على نموذجين متقابلين: الزاوية التجانية ومكانتها وطقوسها الدينية في بلاد جنوب الصحراء، ثم الزاوية الگناوية وتشريح مرتكزاتها الصلاحية ومقارنتها بزوايا الشرفاء سواء من حيث المرجعية الدينية أو من حيث الطقوس أو الأذكار. كما سنتوقف عند الموسيقى الكناوية، باعتبارها من الرواسب الإفريقية الحية والوافدة على الثقافة المغربية، لنبرز ما خلفته من آثار عميقة على أشكال موسيقية تراثية بالمملكة. هذا وسنكشف عن أهم التأثيرات الإفريقية في الأدب الشعبي والعمارة والطبخ واللباس والحلي المغربي من خلال الاشتغال على نماذج معينة.

ISSN: 2706-6495

حدود الدراسة

١- من حيث المكان:

فهذه الدراسة المستفيضة غطت منطقة شاسعة ارتبطت بإبراز متانة العلاقات الثقافية والاجتماعية، التي ظلت وستظل راسخة بين دولة المغرب ومنطقة السودان الغربي، الذي يضم اليوم العديد من الدويلات التي صنعها الاستعمار الغربي بعد أن أرسى أقدامه بالمنطقة منذ القرن الثامن عاشر.

وتعتبر القارة الإفريقية جزءا مهما من العالم القديم، وتأتي في المرتبة الثالثة بين القارات من حيث المساحة (30.500.000 كلم٢)* ويقدر عدد سكانها بحوالي مليار نسمة (وفق آخر التقديرات)، ترتبط بآسيا عبر قناة السويس، ويفصلها عن أوروبا مضيق جبل طارق، يحيط بها البحر الأطلنتي غربا والمحيط الهادي والبحر الأحمر شرقا، وتتموقع بين الخط ٣٧٠ للقطب الشمالي والخط ٣٥٠ للقطب الجنوبي (Dictionnaire- Encyclopédique de la langue française. p21). فهذه القارة موطن الكثير من المعادن النفيسة وتختزن في باطنها كمًّا هائلا من الثروات البترولية، وينعكس كبر مساحة القارة على عظم مساحة وحداتها السياسية التي تعتبر من أكبر الدول مساحة في العالم. فمساحة السودان وحدها تبلغ أربعة أمثال ونصف مساحة فرنسا أو أكثر من عشرة أمثال المملكة المتحدة (جودت، حسين جودت، ١٩٩٣، ص ٢٥).

ورغم العوائق الطبيعية والبشرية التي ظلت تتخبط فيها القارة الإفريقية بفعل مناخها الحار والجاف وحشراتها القاتلة وعزلة مجتمعاتها التقليدية، ونتيجة لتجارة الرقيق التي نهبت سواعد سكانها، الذين كانوا يقدرون في ١٩٦٠ ب٢٣٦ مليون نسمة (المنجد في اللغة والأعلام، ص ٥٣٨)، فانتقلوا بوثيرة مرتفعة إلى ما يزيد عن ٦٠٠ مليون حاليا، هذا ما يجعل القارة، يوما بعد يوم، تستيقظ من سباتها رغم مساهمتها المحتشمة في الاقتصاد العالمي.

وتعتبر المملكة المغربية إحدى دول شمال إفريقيا، تطل على واجهتين بحريتين، البحر الأبيض المتوسط شمالا، والمحيط الأطلسي غربا، وتجاورها جمهورية الجزائر شرقا وتحدها دولة موريتانيا جنوبا، عاصمتها الرباط، و تبلغ مساحة المملكة ٧١٠,٧٥٠ كيلومترا مربعا، ويبلغ طول السواحل المغربية ٣٥٠٠ كيلومتر. ويدين سكانها، الذين تجاوز عددهم الثلاثين مليونا في الإحصاء العام للسكنى سنة ٢٠٠٤م، دين الإسلام، ويتحدثون اللغة العربية باعتبارها اللغة الرسمية للبلاد، ثم الأمازيغية بلهجاتها الثلاث، ويتبنى سكانها المذهب المالكي منذ العهد المرابطي. وعلى المستوى السياسي فالمملكة المغربية دولة ذات نظام ملكي دستوري برلماني واجتماعي، وجاء في تصدير الدستور المغربي لسنة ٢٠١١: «المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية،

* تشير بعض المراجع أن القارة إذا احتسبت جزرها ومدنها المحتلة، فهي تحتل المرتبة الثانية بين القارات من حيث المساحة .

ISSN: 2706-6495

الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية - الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية. كما أن الهوية المغربية تتميز بتبوإ الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها، وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء».

ونقصد بغرب إفريقيا الجزء الكبير من الفضاء الجغرافي الذي أطلق عليه الكتاب العرب في العصر الوسيط اسم " بلاد السودان" وهي المنطقة التي تحدها الصحراء من الشمال والغـــابات الاستوائية من الجنوب، والمحيط الأطلسي من الغرب ونهر النيل شرقا. أما اليوم فقد عرفت المنطقة، بفعل تدخل القوى الاستعمارية الأوروبية، تقسيما ممنهجا يجزئها إلى أزيد من ست عشرة دولة مستقلة سياسيا واقتصاديا. وقد حاولت بعض دول الغرب الإفريقي تشكيل المجمع الاقتصادي لدول غرب إفريقيا المعروف اختصارا ب (**CEDEAO**) وهو منظمة وحدوية تعنى بالتنمية والتبادل التجاري الحر بين البلدان، ويضم حاليا خمس عشرة دولة عضوا، بعد انسحاب موريتانيا.

وعرفت منطقة الغرب الإفريقي تاريخا عريقا وزاهرا بالحضارة والأحداث، إذ كشفت الدراسات الإركيولوجية المتمثلة في النقوش واللقى الأثرية عن وجود تعمير هذه المنطقة منذ العصور الحجرية الأولى، ومع انتشار الإسلام حدثت في القارة أكبر التحولات، فعلى الصعيد الروحي والثقافي تخلص الأفارقة من وحشية الوثنية، فاستأنسوا بعقيدة التوحيد واطمأنوا إليها، وخرجوا من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة(النحوي، الخليل، ١٩٩٣، ص ٥). وإذا كانت الفتوحات الإسلامية قد انطلقت من الشرق نحو المغرب بسرعة في القرن الأول الهجري. فإن ما وقع من ترسب ثقافي في غرب إفريقيا تأخر وتطلب عدة قرون (توفيق، أحمد، ١٩٩٤، ص١٤).

٢- **من حيث الزمان**:

لقد حاولت هذه الدراسة أن تغطي فترة العصر الإسلامي التي تنطلق بالمنطقة ابتداء من فتح عقبة بن نافع للمنطقة شمال إفريقيا في منتصف القرن الثاني الهجري وأيضا زيارات موسى بن نصير لاستتباب الدين الاسلامي بإفريقيا وتمتد إلى اقتحام الاستعمار الأوروبي للمنطق الذي حاول عزل المغرب عن جذوره الإفريقية وتذويب العلاقات الاسلامية بين دول المنطقة وفرض سلطته العسكرية والدينية والثقافية واللغوية والتي كان لها دور كبير في تقويض الروابط الثقافية وطي صفحات مشرقة من تاريخ إفريقيا في رفوف النسيان.

ISSN: 2706-6495

٣- من حيث العناصر البشري:

ومن حيث العنصر البشري تعتبر إفريقيا الغربية، التي هي مجال اهتمامنا في البحث، حاوية لقبائل كثيرة من الزنوج، تستقر فيما بين السنغال والكامرون. ويرجح الأنثروبولوجيون أن أنقى الأنواع الزنجية هي تلك التي تستقر على طول ساحل غينيا، ويتميزون بالبشرة السوداء، وطول القامة، والشعر الحلزوني، والأنف الأفطس، والشفاه الغليظة. ويعمّر الأمازيغ الجزء الشمالي للمنطقة والصحراء ويمثلون بالأساس الطوارق الذين يتوزعون بين موريتانيا ومالي والنيجر، والسنغال، بل إن اسم السنغال مشتق من صنهاجة، فما هي إلا تحريف للفظ زناجة، وكانت تنطق " زناجال"، وأكبر قبائل صنهاجة الصحراء لمتونة ومسوفة وجدالة وبنو وران ولمطة وتارجا، وتلك هي القبائل التي أقامت دولة المرابطين، وكانت بلادهم تمتد في الصحراء إلى عمق بعيد في الجنوب(مؤنس، حسن، تاريخ المغرب وحضارته، ص٤٨). هذا بالإضافة إلى القبائل العربية التي هاجرت منذ قرون غابرة واندمجت مع الزنوج في الجنوب والأمازيغ في الشمال. ومن أهم القبائل التي تستقر في إفريقيا الغربية بالإضافة إلى القبائل العربية[١] والطوارق، قبائل الأداماوا (أهمها المندانيك والفالي والمبوم) وقبائل الأشانتي (شاكر، مصطفى سليم، ١٩٨١، ص٧٠) بغانا وقبائل البافيا بالكامرون وقبائل البامبرا[٢] بالنيجر ومالي والباسا قرب نهر النيجر والبانتو، ثم الوالوف بالسنغال والماساي والكرور والهوسا وغيرهم.

جمجمه للإنسان العاقل القديم، جبل إغود ناحيه اسفي، حوالي 160.000سنة ق.م- متحف الآثار بالرباط

وينضوي سكان هذه المناطق تحت لواء عدد كبير ومتنوع من النظم القبلية، التي تربط بينها بعض المميزات الثقافية العامة، في المسكن ونمط العيش والطقوس والمعتقدات والتضحية (جودت، حسين جودت، ١٩٩٨، ص١٠٩)، ويتكلم سكان إفريقيا الغربية إلى جانب اللغة العربية بالشمال والفرنسية ، لغة الهوسا ولغة البانتو، وهي لغات محلية واسعة الانتشار ومتأثرة باللغة العربية. هذا بالإضافة إلى الكثير من اللهجات المحلية المحدودة التداول.

مصطلحات الدراسة وتعريفاتها

لقد عرف القرن العشر ون اهتماما متزايدا بدراسة التراث الشعبي العالمي؛ باعتباره أحد الركائز الرئيسة في صناعة الهوية الجماعية للشعوب، وصيانة ذاكرتها الثقافية والإنسانية، فالتراث الشعبي يُعد رافدا أساسيا من روافد التاريخ، ويشكل البنية التحتية التي يتأسس عليها البناء الثقافي الشعبي لأي أمة من الأمم. وقد اكتشفت الدراسات الإنسانية المعاصرة عمق تأثير المأثورات الشعبية في تشكيل المنتج الكلي للثقافة التي ينتمي إليها. ولذلك أصبح الاهتمام به من قبل الهيئات والمنظمات الدولية والمحلية العاملة في مجال التنمية متزايدا،

[١] القبائل العربية موزعة اليوم بين السنغال ومالي والنيجر ناهيك عن المجموعات التي انصهرت في بقية السكان في أنحاء السودان الغربي ومن أهم هذه القبائل: تبرازه- بركنة- أولاد دليم- الرقيبات- المشطوف- جرجنكة- الكونتة- البرابيش- الأنصار- أولاد سليمان- أهل أروان – أولاد أعيش- الفولانيين – السكاكنة-... (محمد علي، مسعود عمر : تأثير الشمال الإفريقي في الحياة الفكرية في السودان الغربي،ص ٢٦).

[٢] البامبرا قبيلة زنجية قدرت عدد سكانها بمليون نسمة سنة ١٩٨٠ ، وتنتش ر بشكل واسع في غرب إفريقيا خاصة في مالي، وهي جزء من شعب الماندنك. (قاموس الانثروبولوجيا، ص ٨٦).

ISSN: 2706-6495

وذلك لدور التراث الشعبي في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حيث أصبح ينظر إليه بوصفه تعبيرا عن أسلوب متكامل في الحياة (شرشار، عبدالقادر، مجلة التراث العربي، ص٣٢٤).

وتعد إشكالية المصطلحات في العلوم الاجتماعية والإنسانية من أهم المداخل لفهم الظواهر وضبط مقاربتها، فالاتفاق على معنى محدد لها يعد من أبرز المشكلات التي تقابل المتخصصين في هذه العلوم، خاصة وأنها تعالج أمورا تتصل اتصالا وثيقا بواقع الحياة اليومية المألوفة وتنقل صداها وآثارها من أفواه وسلوكيات المجتمع، وفي ظل اختلاف المدارس والنظريات والمناهج برز على السطح تعدد المقاربات للمصطلح الواحد الشيء الذي نتج عنه تعويم وضبابية في فهم الكثير منها. وبناء على هذا الطرح الإشكالي سنلقي الضوء على أبرز اللبنات المفهومية التي سيقوم عليها بحثنا بصفة عامة.

١- مفهوم الثقافة: LA NOTION DE LA CULTURE

لا يختلف اثنان في كون مفهوم الثقافة هو من المفاهيم الملتبسة في كل اللغات، لأنه يراد منه التعبير بكلمة واحدة عن مضمون شديد التركيب والتعقيد والتنوع والعمق والاتساع، ويضاف إلى هذا الالتباس أن المفهوم يشمل معاني متعددة.

تختلف المقاربات الدلالية لهذا المفهوم باختلاف المناهج والعلوم الإنسانية، ولعل من أولى تلك المقاربات التي حاولت الإحاطة بالمصطلح وحصر معناه، ما قدمه العالم الأنثروبولوجي إدوارد تيلور حينما قال:«هي هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع»(كوش، دنيس، ٢٠٠٧، ص١٧).

٢- التراث الشعبي: Le Folklore

يعتبر هذا المفهوم من المفاهيم الواسعة التداول في مختلف الأقطار العربية شرقا وغربا، وإن كان يطرح إشكالا كبيرا في حصر دلالته وتصنيف مكوناته؛ ويعود السبب في ذلك بالأساس إلى غياب نظرية للتراث الشعبي العربي ضابطة لمفاهيمه وأنواعه وأصنافها- كما هو الحال بالنسبة للأدب الرسمي- وإنما نجد في الواقع تضاربا في الآراء وتعددا في التصنيفات من دارس إلى آخر. ثم "إن الحديث عن التراث الشعبي قد يثير أكثر من تساؤل حول ماهيته وحجمه وأهميته. ذلك أن الموروث الشعبي سواء من حيث موضوعه ومادته، أو من حيث كيفية بنائه وأسلوب عرضه وطريقة سرده وتناوله، يحتم طرح العديد من التساؤلات الهامة التي لا تقل أهمية عن الأسئلة التي تثار حول قيمته ومدى توسعه وهيمنته على مجالات معرفية واجتماعية ودينية، نظرية وعلمية. مما يمكن معه اعتبار هذا الموروث الشعبي منبع المعرفة وأصلها، والأساس في كل ثقافة أصيلة ولبها. من غير أن نغفل أن لكل وسط شعبي ثقافته الخاصة ومعارفه المتواترة جيلا بعد جيل. وهذا ما يفسر تنوع الموروثات الشعبية الثقافية والاجتماعية والدينية .

ISSN: 2706-6495

الإطار النظري والدراسات السابقة

وقد جاء هذا البحث في أربعة فصول يكمل بعضها البعض، تناولنا في أولها جملة من المفاهيم المحورية التي سيقوم عليها البحث، لتكون الأرضيةُ المعرفيةُ مشتركة وواضحة بيننا وبين المتلقي، كما قدّمنا في هذا الفصل بطاقة تعريفية بالمغرب ودول إفريقيا الغربية من خلال تقديم إطلالة تاريخية مقتضبة عن هذين القطرين متوقفين عند الخصائص الطبيعية والجغرافية والبشرية وأيضا الاجتماعية والثقافية المميزة لكل قطر. وفي الفصل الثاني أبرزنا متانة العلاقات التجارية والاجتماعية والثقافية بين سكان ضفتي الصحراء الغربية ، وأكدنا على قدم تاريخ هذه العلاقة الذي يعود إلى عهود موغلة في القدم حيث كان يعيش الإنسان على الرحلة والترحال، ثم تعززت هذه العلاقات في العهدين الفينيقي والروماني بشكل عام، والعهد الإسلامي بشكل خاص، حيث أسهم التبادل التجاري للسلع والعبيد، وكذلك هجرة القبائل نحو الجنوب وانضواء جزء كبير من السودان تحت السيادة المغربية، في تذويب الهوة الثقافية والدينية والاجتماعية بين الزنوج والمغاربة، وفي ثالث هذه الفصول وقفنا على مختلف التأثيرات الثقافية الشعبية التي أحدثها المغاربة خلال العصر الإسلامي في بلاد السودان الغربي سواء في الدين أو البنى الاجتماعية والأسرية أو في الأدب الشعبي الزنجي، زيادة على العادات والمعارف التي انتقلت إلى السودان في الطقوس المعيشية أو في المأكل والملبس والعمران، وأبرزنا أهم تجليات هذه المؤثرات الدخيلة وأسبابها. وبالمقابل تناولنا في الفصل الرابع التأثير العكسي الذي أدخله الزنوج الأفارقة على مختلف مستويات التراث الشعبي المغربي، وبيّنا أهمية حضور السودانيين في تاريخ المغرب الوسيط، وأبرزنا مختلف رواسب الفكر الزنجي في الثقافة الشعبية المغربية قديما وحديثا.

ومن الأكيد أن البحث في الميدان التراثي الشعبي تكتنفه صعوبات لا تجتازها دون أن تنال منك، فقد تعترضك اللغة الواصفة وهي في كامل عنفوانها وعفويتها، لغة تنفق معها صبرا وحيّلا كثيرة لتصل إلى ربط رموزها والتحكم في مسيرتها وبنائها، كما يُلزمك المنهج التقيد بسبيل واحد لبلوغ المراد وتحليل المواد واستخلاص ما يمكن استخلاصه. وفضلا عن ذلك فالبحوث في الثقافة الشعبية تقوم على الممارسة والميدان الشيء الذي كان يُوجِبُ علينا زيارة السودان الغربي من أجل التتبع الميداني والملاحظة الفاحصة لكل التغييرات والتفاعلات بين سكانه، لكن قصر ذات اليد وغياب التحفيزات، جعلنا نستند فقط إلى الدراسات الأجنبية حول المنطقة، لتدارك أي نقص في البحث، كما وجدنا صعوبات جمة ببلدنا نفسه، حيث منعنا من التصوير بالمتاحف المغربية، ولم نجد ترحيبا من المؤسسات العمومية في استقاء المعلومات. هذا علاوة على تعدد مشارب هذا البحث خاصة وأنه يغرف من بحور شتى، يلتقي فيها التاريخ بالرحلة والدين بالتدين الشعبي والموسيقى بالسرد، والعمارة بالملبس وغيرها.

ولعل من الدراسات الهامة التي حاولت طرق الموضوع دراسة الباحث المغربي عبد العزيز بن عبد الجليل الموسومة بعنوان:" المشترك في مجال النغم والإيقاع بين المغرب والشعوب الإفريقية المجاورة"، إلا أن هذه الدراسة المقتضبة ركزت على التثاقف الموسيقي والإيقاعي في بعده النظري ولم تبرز المظاهر الممارساتية والطقوسية لتلك الأغاني الشعبية بالمغرب. وتضمنت بعض المحاضرات والدروس التي ألقيت في معهد الدراسات الإفريقية بالرباط العديد من الإشارات التاريخية إلى عمق التواصل الحضاري بين القطرين الشمالي والجنوبي من إفريقيا.

ISSN: 2706-6495

كما أشار الباحث عبد الإله بنمليح في كتابه:" الرق في المغرب والأندلس" إلى بعض من الأدوار الاجتماعية والثقافية التي مارسها العبيد الأفارقة في المجتمع المغربي، وعدا ذلك تكاد الساحة تخلو من دراسة مغربية مكتملة تبحث في الظاهرة عبر جذورها التاريخية وتبرز أهم ملامحها الثقافية والتراثية.

إن الإنسان بطبيعته كائن حامل لثقافة عشيرته ومتأثر بمحيطه الاجتماعي والثقافي الذي نشأ فيه، وأينما ارتحل هذا الكائن إلا وحمل معه ذلك الموروث الثقافي الذي شحن به في الصغر وتربى عليه في الكبر. وكان الأنثربولوجيون الكلاسيكيون، من أمثال إ. ب. تايلور ولويس مرغان، الذين يقولون بوحدة الجنس البشري وتطوريته، يعبرون عن يقينهم بأن عقل الإنسان مركب بالطريقة ذاتها في كل الأمكنة، ولذلك فإن الإنسان في كل مكان يفكر بالطريقة ذاتها ويطور ثقافته في خطوط متشابهة(غيرتز، كليفورد، ٢٠٠٩، ص ١٧). هذا ما سيجعلنا نعدِم كل تلك الأفكار السلبية التي ألصقت بالإنسان الإفريقي في عصرنا الحالي، حتى يتسنى لنا الكشف عن بعض إسهامات الأفارقة بيضا وسودا في تطور الحضارة الإنسانية على مر التاريخ.

ويضاف إلى ذلك خاصية مميزة تمتلكها الثقافة الإنسانية وهي قابلية الانتشار. وقد لوحظ أن «الثقافة معدية»، أي بمعنى أن العقائد والعادات والأدوات وحتى الحكايات الشعبية وأدوات الزينة، كلها قابلة للانتقال من ثقافة إلى أخرى ومن شعب إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى. فالأفكار، بلا شك، تهاجر مع الإنسان أينما ارتحل بين الشعوب والقبائل، خاصة عندما يرى الشعب المتلقي مصلحة له في تقليد جوانب ثقافية من شعب آخر قد يراها موفية بأغراضه أكثر من جوانبه الخاصة. وقد حدث هذا الانتشار مرات عديدة في التاريخ حتى في ظروف طبيعية صعبة مع وجود حوائل طبيعية (كالأنهار أو الجبال) بين الشعوب، وقد أثبتت أعمال الحفر الأثرية انتقال العنبر من منطقة البلطيق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وانتقال قطع النقود من منطقة الشرق الأوسط إلى شمال أوروبا، يضاف إلى ذلك انتقال أنواع من الزراعات كالتبغ والبن والبطاطا عبر المناطق والتراثات المختلفة. ومن خلال وقوفنا على بعض قطع الحلي التي كانت تستعمل في الزينة عند نساء الشمال الإفريقي في عصور ما قبل التاريخ، تبين لنا تشابها، إلى حد التطابق، بين المواد التي كانت تستعمل في صنع هذه الحلي حسب ترتيبها الزمني من جهة (الأحجار- صدفيات البحر- قشور النعام- البرونز- الذهب ...)، وحتى بين الزخارف والأشكال المعتمدة في تزيينها (دوائر- مربعات- أشكال ثعبانية وحيوانية-....)، حيث إن المدقق في طبيعة الحلي المستعمل في الشمال والغرب الإفريقي مرورا بالصحراء يلاحظ تقريبا تطابقا في الأشكال والمواد في مختلف الحقب الزمنية التي عرفتها صناعة الحلي. وهذا في اعتقادنا ينم عن وجود تبادل تجاري أو ثقافي أو هجرات سكانية بين الشمال الإفريقي وغربيه منذ تاريخ قديم.

ISSN: 2706-6495

سوار من اسطوانيا الشكل من عاج الفيل وجدا بمقبرة الصخيرات 3200 ق.م

المتحف الوطني للحلي الرباط- الشكل1-

عقد من عجين الزجاج

المتحف الوطني للحلي الرباط - الشكل2-

حلي من حجر مصقول ومثقوب وجدت بالصحراء تعود للعصر الحجري الحديث

متحف باردو الوطني بالجزائر - الشكل 3-

حلي من صدف البحر ما قبل التاريخ

متحف الحلي بالرباط

سوار على شكل افعى(من الفضة)في العهد الروماني- متحف الحلي الرباط

حلقات للرجال، منطقة الأوراس

متحف باردو الوطني الجزائر

ISSN: 2706-6495

هذا علاوة أن العلاقات مع الصحراء ظلت قائمة ومسترسلة بسبب الهجرات البشرية المتوالية التي توجهت إلى شمال إفريقيا هاربة من جفاف الصحراء. بل ويبدو أن هذه المجموعات البشرية، رغم توجهها إلى الشمال بحثا عن الكلإ والمرعى، فإنها حافظت على الاتصال بمناطقها الأصلية في الصحراء حيث "ظلت تتعامل وتتبادل معها بعض المواد وخاصة مع موريتانيا الحالية وشمال مالي وحوض نهر النيجر وأن الطرق والمسالك التجارية التي كانت تستعملها للتبادل التجاري هي نفسها التي ظلت تستعمل فيما بعد، وهي التي تنتشر من حوض النيجر إلى جنوب المغرب عبر موريتانيا" (الخطيب، عفراء ، أعشي، المصطفى،٢٠٠٢، ص ٥٦) .

ضريح سيدي أحمد النجاني بزاويته بفاس بعدسة الباحث

ومن نماذج ذلك التواصل بين مختلف الإثنيات كانت عبادة الإله أمون٣ رائجة في الشمال الإفريقي والصحراء في هذه الفترة من الزمن، وفيها كان الإله "أمون" يجسم في شكل إنسان برأس كبش، وكان بشكله هذا يعبر عن معان ورموز مختلفة(كريدية، إبراهيم، ٢٠٠٨، ص ٤٧). هذا الإله الفرعوني الكبير الذي كان يمثل إله الشمس والريح والخصوبة - وهو أحد الآلهة الرئيسيين في الميثولوجيا المصرية القديمة- كانت عبادته تعم جزءا كبيرا من النصف الشمالي للقارة الإفريقية بشرقها وغربها، مما يشي لنا بوجود روابط اجتماعية وثقافية بين الحضارة الفرعونية وهذه المناطق بما فيها المجتمعات السوداء، وهو الشيء الذي يتأكد من خلال اكتشاف أحجار من زجاج اللؤلؤ في الجابون وتمثال صغير للإله أوزيوس في مدينة مالونجا في الجنوب الشرقي من الكونغو وتمثال آخر جنوب نهر زامبيزى (بروديل فرناند، ١٩٩٩،ص١٥١).

منهجية الدراسة

إن تتبعنا لظاهرة التثاقف في التراث الشعبي أفضى بنا إلى حقل الأنثروبولوجيا باعتبارها علما شاملا يستوعب الظاهرة الإنسانية بكل أشكالها وفي كل اشتغالاتها المادية والفكرية، كما أنه يوفر لنا تسويغات موضوعية لكل ظاهرة ثقافية رسمية أو شعبية، مكتوبة أو شفهية، إذ سيمكننا هذا العلم في مرحلة أولى من النبش في التاريخ الماضوي للتبادل الثقافي والتثاقف الشعبي لهذه البلدان منذ غابر الأزمان مركزين على ما حوته كتب التاريخ والرحلة العربية وأيضا الإثنوغرافيا الغربية من إشارات في هذا المجال، ثم على علم الآثار وما كشفه من حقائق جديدة، وفي مرحلة ثانية سنعتمد على ذات المنهج في دراسات ميدانية نتتبع من خلالها مختلف المظاهر الدينية والأدبية والعاداتية والاعتقادية التي أضافها الأفارقة في التراث الشعبي المغرب، وتلك التي انبثقت من انصهار الثقافتين الإفريقية والمغربية سواء كانت عربية أو أمازيغية.

٣ أمون هو إله الشمس عند المصريين وصار بعد ذلك مع راع أبو الآلهة وسيد كل الأحياء.

ISSN: 2706-6495

أدوات الدراسة

إن طبيعة البحث وفرضياته هي التي تحدد الأدوات المنهجية التي سيستعان بها لتفكيك الظاهرة المدروسة ومحاصرتها، وبناء على ذلك اخترنا بعض الوسائل التي أملتها علينا طبيعة الإشكالية المطروحة وأهداف البحث وظروفه، وتتمثل هذه الوسائل فما يلي:

١- دراسة مكتبية ووثائقية: يرجى منها الكشف والوقوف عمّا كتب حول موضوع التراث الشعبي المشترك بين المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء.
٢- زيارات ميدانية للمعاهد المتخصصة والمتاحف الأثرية ودور المخطوطات قصد دراسة مختلف العينات والعناصر التي تكشف الترابط بين المغرب وبلاد السودان الغربي في العصر الإسلامي.
٣- دراسات ميدانية للوقوف على الحضور الإفريقي في التراث الشعبي المغربي بمختلف أشكاله التعبيرية وبناه الاجتماعية والثقافية.
٤- مقابلات ولقاءات مع متخصصين في الميدان ومع مختلف الفئات الشعبية ذات الصلة بالموضوع.

هذه، إذن، أهم الوسائل المنهجية والمعرفية التي سنحاول استثمارها في دراسة وتحليل هذا الموضوع، علما أننا سنعمل، قدر الإمكان، على جمع وتحليل كل تلك النصوص أو الشواهد التي سنلمس فيها البعد الثقافي السوداني. وإننا نعلم، منذ البداية، شساعة هذا البحث وتعدد فروعه العلمية، لكنها ستظل، بحق، شواهد مؤكدة وقنوات ثقافية معبرة عن عمق التثاقف التراثي والاجتماعي الذي بلغ أوجه في القرون الوسطى بين ضفتي الصحراء الغربية.

النتائج والتوصيات

وبعد تتبعنا لمسار تطور التثاقف الشعبي بين المغرب وبلاد السودان الغربي، وجدنا أن العلاقات بين القطرين ضاربة في جذور التاريخ الإنساني القديم، فهي علاقات حكمتها التحولات الطبيعية والبيئية للقارة السمراء من جهة أولى، وسجية الإنسان القديم المفطور على الرحلة والترحال في بساط الأرض بحثا عن موارد العيش من جهة ثانية، كما كان للتبادل التجاري بين ضفتي الصحراء دور كبير في تذويب الهوة الثقافية والاقتصادية بين الجانبين، زد على ذلك أن المنقطة عرفت توطينا عامرا بالسكان منذ آلاف السنين حسب ما أثبتت دراسات الآثار الحديثة. ورغم كل الحواجز الطبيعية (الصحراء- بعد المسافة- قلة الماء) واللوجيستيكية (وسائل النقل) والصحية (الأمراض- الأوبئة) والمعرفية (العادات- اللغة) فإنها لم تقف حاجزا في وجه الإرادة والمصالح الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية للحضارات المتعاقبة على المنطقة في مختلف العصور، خاصة في العهد الإسلامي الذي سيشهد تزايدا في النشاط التجاري بين المغرب والسودان بعد أسال كل من الذهب والعبيد لعاب الكثير من التجار المغاربة.

وإن الحقيقة التي لا يزايد عليها أحد، هي أن تاريخ إفريقيا القديم عامة والغربية منها خاصة مليء بالأمجاد والأحداث، وما يجهل منها أكثر مما يعرف، ذلك أن سكان هذه القارة لم يعرفوا الكتابة إلا في عصور متأخرة مقارنة مع بلاد الرافدين، كما أن ما دونته أقلام الأفارقة ضاع أغلبه، لتغرق القارة في ظلمة قاتمة، لم تزِل غبشها إلا كتابات بعض الرّحالة المستكشفين في عصور متأخرة. ولم يستسغ الأوروبيون أن التقدم الحضاري الذي عرفته القارة السمراء في العهود القديمة وليد السواعد والألباب الإفريقية،

لذا تبنوا نظريات ترجع التقدم الحاصل في إفريقيا في عصر ما قبل التاريخ لشعوب من خارج القارة، لكن بعض الاكتشافات الأثرية الحديثة بينت قدم الإنسان في إفريقيا ومروره من مختلف حقب التطور البشري، حتى اعتبر البعض أن القارة السمراء هي التربة التي منها يتأصل جميع أجناس البشر على الكرة الأرضية.

لا شك أن الإنسان بطبيعته كائن حامل لثقافة عشيرته ومتأثر بمحيطه الاجتماعي والثقافي الذي نشأ فيه، وأينما ارتحل هذا الكائن إلا وحمل معه ذلك الموروث الثقافي الذي شحن به في الصغر وتربى عليه في الكبر، ولما رصدنا حركية الإنسان الإفريقي خلال العهد الإسلامي وجدناه عاش منذ زمن بعيد على الترحال من شمال القارة نحو الجنوب أو من الجنوب نحو الشمال، إما بحثا عن موارد أفضل للعيش أو هروبا من الحروب والصراعات أو للتجارة أو طلبا للعلم والمعرفة، فتضافرت هذه العوامل وغيرها لتخلق عالما إفريقيا هجينا، انصهرت فيه مختلف الثقافات الإنسانية والديانات السماوية، خاصة منها الإسلام. ولم تكن العوامل الطبيعية القاسية للصحراء، ولا وعورة المسالك الرملية ولا طول الطريق بين المغرب وبلاد السودان الغربي، كافية لكبح روابط التواصل المختلفة بين سكان المنطقة خلال العصر الإسلامي، هذا ما أسهم في خلق لحمة اجتماعية انصهر فيها العرب والأمازيغ والزنوج، خاصة في المناطق الصحراوية وفي معابر القوافل التجارية، لتكون هذه المناطق القاطرة الرئيسية التي ستضطلع بالوساطة الدينية والتثاقف الشعبي واللغوي والثقافي والحضاري بشكل عام.

كما نشير إلى متانة الروابط السياسية والاقتصادية التي جمعت بين سلاطين المغرب بمختلف انتماءاتهم السياسية (أدارسة ومرابطون وموحدون...) وبين ملوك وزعماء الممالك والإمارات الناشئة بالغرب الإفريقي خلال العهد الإسلامي. وإن كانت تلك العلاقات تعرف فتورا وصراعا في بعض الفترات، فإن أي جانب منهما لم يستطع الاستغناء عن الآخر في جميع الأحوال. كما ظل سلاطين المغرب يفرضون وصايتهم الدينية وأحيانا السياسية على المنطقة، علما أن جزءا هاما من تلك البلاد كان تابعا للحكم المغربي المباشر خاصة في عهد المرابطين والموحدين والسعديين.

ولا ريب أن التقارب الجغرافي بين المغرب وبلاد السودان عزز أوجه التواصل الشعبي بين القطرين، ونتيجة لاحتكاك السودانيين بالمغاربة المسلمين، أفرادا وقبائل وتجارا، بعدما هاجروا واستقروا في هذه البلاد، ارتدى أغلب السودانيين بمختلف انتماءاتهم جبة الإسلام، وتأثروا بثقافته وقيمه والتزموا بعاداته، ولزموا طقوسه ومعتقداته، وتخلصوا جزئيا من أعرافهم وتقاليدهم الوثنية. وقد كان للمغاربة تأثير بالغ في الحياة اليومية للسودانيين تمثلت في إحداث تغيير جذري مس العمق الثقافي والعقدي للزنوج، فتبدلت القيم بما يوافق الدين الجديد، وتبنوا الثقافة واللغة العربية التي صارت عندهم لغة دين ودنيا، وتشبثوا بالمعاملات الإسلامية وخلدوا الأعياد الدينية بطقوس إسلامية، وتأثروا في احتفالاتهم الشعبية بالسماع الديني والنغمة العربية، ولبسوا لباس المغاربة، كما شيدوا الدور والحصون والمدن على النمط المغربي أو العربي، فظهرت حواضر سودانية تتنفس إيقاع الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي مثل: تنبكتو، وجني، وجاوه، وأغاديس، ولاته، وشنغاي وهلم جرا.

وبالمقابل، وعلى مر السنين انتقل العديد من السودانيين إلى بلاد المغرب، عبيدا وتجارا وطلاب علم، حاملين معهم ثقافتهم الإفريقية وعاداتهم ومعتقداتهم بمختلف أشكالها، وبعد وضعية الاسترقاق التي قضاها العبيد السود، حصلوا على حريتهم واندمجوا في طبقات المجتمع المغربي، خاصة في المناطق الجنوبية منه، حيث يوجد "الحراطين" في مختلف الواحات والصحاري والحقول، وهم يمارسون الزراعة والري ويملكون الأراضي كغيرهم في أغلب تلك المناطق،

ISSN: 2706-6495

كما وجد أيضا العبيد في وسط وشمال المغرب حتى إنه لم تكن مدينة أو ناحية أو قصر أو بيت من بيوت الأسر الكبيرة يخلو من هؤلاء، إذ هي في حاجة إلى سواعدهم للاستعانة بها في الزراعة وتربية الماشية أو في الأشغال المنزلية. وكان اقتناء العبيد والمكاثرة منهم مظهرا من مظاهر التباهي عند المغاربة، بل كان اتخاذ الإماء السودانيات في المعاشرة رائجا إلى أن نافسن الزوجات في ذلك.

ونتيجة لانصهار السودانيين أو الگناويين (في النطق المغربي) في البنية الاجتماعية المغربية وبالنظر لاحتكاك القبائل الحسانية بسكان بلاد السودان دخلت إلى المغرب العديد من المظاهر التراثية الزنجية، فتلقفها عنهم المغاربة، خاصة بعد أن تكتل هؤلاء العبيد في مختلف المناطق المغربية ليشكلوا زوايا ومجموعات بهدف الحفاظ على ثقافتهم الوثنية التي تشبعوا بها في السودان، فظهرت إرهاصات هذه الثقافة في بعض الممارسات الدينية والمعتقدات الشعبية والعادات اليومية الدخيلة على المجتمع المغربي، كما برزت أيضا في الأدب والحكايات الشعبية التي تداولتها ألسنة السودانيات في البيوت المغربية، زد على ذلك ما أحدثه الگناويون من تأثير في مجال النغم والموسيقى والرقص والآلات، بل بلغ تأثيرهم حتى المأكل والمشرب واللباس والعمارة المغربية.

خاتمة

لعمري إن التثاقف الشعبي بين المغرب وبلاد السودان الغربي في العصر الإسلامي لبارز وجلي، يُلاحظ في مختلف مناحي الحياة الدينية والثقافية والتراثية والاجتماعية والفنية للضفتين، لكن دخول المؤثرات الأجنبية منذ أن فرض المستعمر هيمنته المطلقة على المنطقة، بشمالها وجنوبها، ألقى بظلاله الثقافية، خاصة بعد أن وظف المستعمر سلاحيه: سلاح الآلة والعصرنة الذي مكنته من فرض النفوذ واستغلال خيرات هذه البلاد؛ و سلاح الثقافة الذي استعان به لغسل دماغ الأفارقة وطمس هويتهم المحلية، وتعويضها بخصوصياته الثقافية والفكرية مستثمرا المدرسة والكتاب والإعلام والكنيسة كوسائل لتنزيل مشروعه الاستعماري.

ولا شك أن دراسة هذا التمازج والتثاقف الحضاري بين المغرب وبلدان إفريقيا الغربية اليوم من شأنه التعرف على مدى الارتباط والانصهار الثقافي والتاريخي الذي يجمع هذه البلدان الشقيقة، وكذا من شأنه أن يعزز الثقة بين الجانبين للبحث عن وسائل تزيد من فاعلية التعاون الإفريقي ومن الوعي بالتاريخ المشترك بين هذه الشعوب لصد كل المخططات الصهيونية والاستعمارية التى ترمي إلى تقسيم القارة على ضوء اللون أو اللغة أو الدين.

لائحة المصادر والمراجع

في هذا الباب أشير إلى البحث اعتمدت فيه على أزيد من ٦٥٠ مرجع باللغة العربية والفرنسية والانجليزية والاسبانية، وأقدم هناك فقط نظرا لضيق الحيز بعضا من المراجع المعتمدة في البحث.

- ابن أبي زرع،١٩٧٣، الأنيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط.
- ابن بطلان، أبو الحسن المختار، رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة نوادر المخطوطات، ط١، مطبعة لجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

- ابن بطلان، أبو الحسن المختار،١٩٥٤، رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة نوادر المخطوطات،ط١، مطبعة لجنة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي،١٩٩٧، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المجلد الرابع، تحقيق عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية.
- ابن خلدون، عبدالرحمان، العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د.ت.
- أبو سعيد، أحمد، ١٩٨٧، قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية، مكتبة لبنان، بيروت، ط١.
- إحسان، محمد الحسن، ١٩٩١، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الأولى.
- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، ١٨٥٧، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، الجزائر.
- بن العربي العريشي ، عبدالرحمان،٢٠٠٤، علال الفاسي: في منفى الغابون ١٩٣٧- ١٩٤٦،، منشورات مؤسسة علال الفاسي، ط١،الدار البيضاء.
- بن عبدالله، عبد العزيز،١٩٥٧، مظاهر الحضارة المغربية ، دار السلمي للتأليف والنشر، الطبعة الأولى.
- بن عبدالله، عبدالعزيز، ٢٠٠١، فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط.
- بنمليح، عبدالإله، ٢٠٠٤، الرق في المغرب والأندلس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى.
- توفيق، أحمد، ١٩٩٢، العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات عكاظ، الرباط.
- حركات، إبراهيم،٢٠٠٠، العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
- الحسين،إبراهيم، ٢٠١٠، الشفهي والبصري في الموروث الأدبي والجمالي الحساني، منشورات وزارة الثقافة.
- الخطيبي، عبد الكبير، الاسم العربي الجريح، ترجمة محمد بنيس، منشورات الجمل، ط١.
- دياب، أحمد إبراهيم، ٢٠٠١، علاقة اللغة العربية باللغات الافريقية، ضمن أعمال المؤتمر الدولي اللغة والثقافة في إفريقيا، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.
- الزعفراني، حايم، ٢٠٠٠، يهود الأندلس والمغرب ، الجزء الثاني، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسم، الرباط.
- السعدي، عبدالرحمان، ١٩٨١، تاريخ السودان، مكتبة أمريكا والشرق، باريس.
- شاكر، مصطفى سليم، ١٩٨١، قاموس الانثروبولوجيا، الطبعة الأولى.
- الشكري، أحمد، ١٩٩٧، مملكة غانا وعلاقتها بالحركة المرابطية، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط.
- عبد العزيز، بن عبد الجليل، ١٩٩٥، المشترك في مجال النغم والإيقاع بين المغرب والشعوب الإفريقية المجاورة، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط.
- العروي، عبدالله، ١٩٩٧، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة
- العسيري، عبد الكريم،١٩٩٩، عالم الطقوس والألوان داخل الليلة الكناوية، منشورات الصفريوي، المغرب.
- العمري، أحمد بن يحيى فضل الله،١٩٢٤، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: أحمد زكي باشا، طبعة مصر.
- غوردو، عبدالعزيز، ٢٠٠٤ افتراس اللحوم الآدمية – زيارة إلى التاريخ المقارن- مطبعة الجسور، وجدة، ط١.

- الفاسي، عبدالإله،١٩٩٦، مدينة الرباط وأعيانها في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(١٨٣٠- ١٩١٢)، منشورات جمعية رباط الفتح، مطابع الأطلس، الرباط.
- فليجة، أحمد نجم الدين، د.ت، إفريقيا –دراسة عامة وإقليمية-، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
- كربخال، مارمول،١٩٨٤، إفريقيا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط.
- محمد المختار السوسي: إليغ قديما وحديثا، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٦،
- محمدي، عبدالقادر،٢٠١٣، أنتروبولوجيا الجسد الأسطوري (بحث في الهوية والامتداد)، مطبعة فارس بريس.
- محمدي، عبدالقادر،٢٠١٣، أنثروبولوجيا الجسد الأسطوري، مطبعة فاس بريس.
- المدغري،التهامي، ٢٠١٠، موسوعة ديوان الشيخ التهامي المدغري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، سلسلة التراث، الرباط.
- مزيان،أحمد، ١٩٨٨، فجيج (مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالمغرب خلال القرن ١٩)، مطبعة فجر السعادة.
- مؤنس، حسين، ١٩٩٢، تاريخ المغرب وحضارته (من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي)، الجزء الأول، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ط١.
- مؤنس، حسين،٢٠٠٣، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة.
- الناصري، أحمد بن خالد، ١٩٩٧، الاستقصا لدول المغرب الأقصى، ج١-٧، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- يوسف فضل حسن، ٢٠٠٩، ملامح من العلاقات الثقافية بين المغرب والسودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعرف الجديدة، الرباط.
- يونس، عبدالحميد،١٩٨٣، معجم الفولكلور، مكتبة لبنان، بيروت.

☒ **المعاجم الأجنبية:**

- Dictionnaire Encyclopédique de la langue française, Alpha, 1996.
- Encyclopaedia Universalis , édition à paris, t1-t12.
- Gérard durozoi et André roussel : Dictionnaire de philosophie, nathan, 2009, paris.

☒ **المراجع الأجنبية:**

- mana, Abdelkader,1997, Les Gnaouna et Mohomed Tabal , Lak Internationnal .
- bnou yassir, Abdelwahed,2008,sur la transe sacrée des gnawa , dans le livre spectacle et diversité culturelle (Colloque en hommage au hassan mniai), international centre for performance studies.
- Voisin ,André, Contes et légendes du Sahara , L' harmattan, paris.
- Diop, Anta,1952, L'afrique noire pré-coloniale,paris.
- Crowley ,Baniel,1997, Folklore Africaine en Amérique, traduit par Nicole Vallée, Ed.Caribéennes, paris.

ISSN: 2706-6495

- Benabdessadok C , 1988, la négresse dans les cintes populaires maghrebins, Dialogue Maghreb- afrique,1, paris .
- benachir ,Bouazza,2001, Négritudes du maroc et maghreb, L'Harmattan, paris ,
- Devisse .J , 1990, Commerce et routes du trafic en Afrique occidentale, dans Histoire Générale de l'Afrique, Unesco, paris .
- légey ,Doctoresse,2009, Essai de folklore marocain ،sirocco, casablanca.
- Eric S.ross,2005, Villes Soufies du senegal ,Série conférences 20, institut des études africaines, Rabat.
- guernier ,Eugéne,1952, L'Apport de l'Afrique à pessée humaine, Payot, paris.
- Harrak, Fatima,1994, West Afican pilgrims in 19 century marocco, Instute of African studies .
- G . Camps ,1980, Les Berbères aux marges de l'histoire, Ed. de Hespérides, paris.
- Nicolas ,Guy,1981, Dynamique de l'islam au sud du sahara, Paris, P.U.F.
- J. sauvaget ,1950, Les Epitaphes royales de Gao, Bull IFAN. Xii.
- Miège, Jean Louis,1999, L'univers des Gnaoua, Editions La pensée Sauvage,Maroc.

جميع الحقوق محفوظة 2020 ©، الباحث عبدان عبدالفتاح ، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)